هل تحلو الحياة بعد الستّين؟

عبد الحكيم حيدر

دائماً كنت لا ألتفت إلى العمر، عمري، خصوصاً في مسألة السعادة أو عدمها، وهذا إذا وصلنا إلى تعريفٍ يكاد يقرّبنا من السعادة، أي سعادة كانت، حتى وإن رأينا سرب حمام فرحان يحلّق في السماء في ساعة المغارب، وليس علينا أيّ ديون لأحد، وبنينا قبرَنا وتفضّل علينا حارس المقابر بزراعة صبّارتين مرّة واحدة، فازهرت إحداهما زهوراً جميلة لكم حلمتُ بها في بيتي، فكدتُ أرقص من السعادة بجوار مقبرتي التي لم أنسَ أن أكتب على شاهدها «وما تدري نفسٌ بأيّ أرض تموت»... ورأيت هناك يمامةً تحطّ قريباً من وقفتي، فقلت ما كل تلك الرسائل وأنا التي لم أهتم بأمر أيّ مقبرةٍ لي، إلّا بعد الستين بستّ سنوات. هل السعادة في أن تهدأ الروح بجوار يمامتها؟ وترى صبّارتك قبل أن تموت مزهرة، هل السعادة في ذلك الطمع للسفر، أي سفر، حتى داخل ذاتك فقط، وإلا لما كتبت على الشاهد «وما تدري نفسٌ بأيّ أرض تموت»، وكأنك، ومن طرفٍ خفيٍّ ولئيم أيضا، تحنّ إلى مكان ما هناك، تركته مجهّلاً، وهو مكان قبرك، وكأنك تفتح قوس المكان إلى ما لا تدركه من سعادة، هناك، في أي بلد، فهل مثلاً الدرويش في طوافه يبحث عن سعادةٍ ما، سواء في معيّة الله وأفلاكه أو في معيّة الطبيعة والخلاء وللطف الذي يأتيه على جناح الفضل والكرم، أو نعمةً وبركة المصادفات في كونه الترامي الذي لا يعرف تدجين الطيور في أقفاصها، فما بالك بدرويش ما. يتقمّصني أحياناً، يعشق دائما ذلك الفرح الذي هناك، وهل هناك أفراحٌ تخايل الدراويش في بلادنا حتى بعد الستين؟ حينما يسند المرء بعد الستين ظهره لحائط، أي حائط، حتى حائط الكتب، حتى حائط تأمّل خطواته التي أوشكت أن تكون هيّنة أو على قدر حيله وحيلته، فيبدأ في تذكّر النجوم والسؤال عنها، ولماذا هي غائبة وقد كانت من قبلُ لا تغيب، أيام كان يصعّد النخيل ويأتي بالبلح ويفرّخ الهواء ويطير فوق سور أيّ حديقة. حينما يسند المرء بعد الستّين ظهره لحائط ويتأمّل عراك الحمام على المكان، مكانها، مكان أن تضع بيضتَها، وعلى القشّ المتناثر أيضاً، كي تبني عشّها، وتتباهى به بجوار قريباتها وهي تتنمّر للقمر. أعجبُ من بعيدٍ لتلك العمارات المرتفعة، وأيتسم وأعجب جدّاً بسعادة لحنان الشمس مع عظامي ولعطف اليمام لحالي، أنا الذي كم أحببتُ رشاقة اليمام، ولكن دائما في اليمام صعوبة الصحبة والتدجين، عكس الحمام، فهل «قرصة اليمام الوراعة» من الإنسان في بدء الخليقة قرصة واعرة في الروح، فظلّ على حرصه نفسه ومخاوف الاقتراب منه، من الإنسان عامة. إذاً، لماذا دائماً أرى اليمام سعيداً بأبعده، بعدما فارق، من قرونٍ بعيدةٍ، ذلك الإنسان الذي دائماً يخطّط لسعاداته من آلاف السنوات فوق رقعة شطرنج الحرب، كي يبتلع بلاداً بيماميها وحديدها وسفنها، ويجلس هناك سعيداً على مائدة التفاوض كي يحدّد له الحزب والإعلام فترة رئاسة سادسة أو حتى لدى الحياة، أما تكفي الستين فقط كي يجلس المرءُ فوق رقعة شطرنج روحه، كي يحسب ما خسره وما هو في انتظاره، صباحاً، بخطىً إلى حماماتي كي أصعد السطح وأحاول جاهداً أن ألحق بأوّل الشمس، وإذا بي أرى يمامةً يكاد أن يكتمل ريشُها وسط الحمام جالسةً في خوف، ولا أعرف كيف دخلت، أدخلتها إلى قفص واسع، من حمامات السطح، كي لا يقتلها الحمام الكبير، وخرجتُ كي ألحق الشمس، كانت السماء هناك رحبةً وأكثر من يمامةٍ هناك تحوم والطيورالأخرى بدأت في الطيران، وسطوح البيوت على همومها نفسها، والشمس قد وصلت وحطّت على الأسلاك، ودخلت بقوة إلى الحمام، هل صعدت السطوح وكانت غائمةً بعد، ثم أشرقت فجأة، لا أعرف؟ الشمس حلوةٌ حينما يسند الواحد ظهره ويتذكّر هفواته أو زلّاته أو حتى خطاياه، هل يكفّر الواحد عن خطاياه بتأمّل الشمس وبإمساد الحمام بالقشّ الرقيق كمساعدة على بناء الأعشاش والألفة. فجأة، من بين الأسلاك، سمعت صخباً جميلاً في ذلك القفص الذي ركنت فيه اليمامة، وجدت حمامة القفص تطعم اليمامة والشمس هناك تبارك الاثنين بمحبّتها.

الغزّة التي أيقظتنا وأيقظتهم

حلمي الأسمر

صحيحٌ أنّ اللسعة كانت ساقمة، وتولّدت عنها حمّى فظيعة، وكادت أن تتسبّب في الموت، إلا أنها كانت كلسعة النحل، التي تؤلم وتعالج في الوقت نفسه. أكثر من هذا، السمّ الذي حملته تلك اللسعة، أو الغزّة بالأحرى كانت بمثابة الترياق الذي يوقف آثار لدغة الأفعى أو العقرب. بمعنى آخر، كان لا بد للجسد أن يأخذ مضاداً مأخوذاً في الأصل من سمّ زعاف للتغلب على إمكانية تسمّمه بالدغة أو الغزّة أو اللسعة. ليس مهمّا الإيغال في هذا المفهوم، لأن له تفرّعات علمية ليس مكانها هنا. تكفي الإشارة إلى أن الترياق، القادر على إبطال سمّ أفعى تسلل إلى جسم مريض ملدوغ أو مغزوز، يُؤخذ من الأفعى ذاتها. باختصار، وحسب العلم، يُجرى استخلاص الترياق المبطل للسمّ بأخذ السمّ نفسه وحقنه في جسم حيوان آخر بكمية صغيرة كي لا يموت الحيوان، ثم يُجرى استخلاص الأجسام المضادّة التي يفرزها جسم الحيوان وحقنها بجسد الملدوغ. في الجانب اللغوي الحدّ، نغزه يسكّن: طعنه بها طعنة غير نافذة، وغزّ غَزَزْتَ، يغُزّ، اغْزُزْ/ غُزّ، غَزّاً، فهو غازّ، والمفعول مَغْزوز، وغَزُّ الثوب أو الجسمُ بالإبرة ونحوها: وخزه وخَزّا خفيفاً، وغزّة في هذه الحال لغة هي الوخزة أو «النخزة» أو النخسة، أو الوَخْزة. صحيحٌ أنها غير نافذة، أي غير قاتلة، لكنها مؤلمة، وقد تحمل، كما قلنا، سمّاً زعافاً قد يكون ترياقا للجسد، ويبدو أن غزّة البلد الصغير بقاعها الأرضي قريبة واعرة في هذا المعنى، فهل «قرصة اليمام الوراعة» من الإنسان في بدء الخليقة قرصة واعرة في الروح، فظلّ على حرصه نفسه ومخاوف الاقتراب منه، من الإنسان عامة. إذاً، لماذا دائماً أرى اليمام سعيداً بأبعده، بعدما فارق، من قرونٍ بعيدةٍ، ذلك الإنسان الذي دائماً يخطّط لسعاداته من آلاف السنوات فوق رقعة شطرنج الحرب، كي يبتلع بلاداً بيماميها وحديدها وسفنها، ويجلس هناك سعيداً على مائدة التفاوض كي يحدّد له الحزب والإعلام فترة رئاسة سادسة أو حتى لدى الحياة، أما تكفي الستين فقط كي يجلس المرءُ فوق رقعة شطرنج روحه، كي يحسب ما خسره وما هو في انتظاره، صباحاً، بخطىً إلى حماماتي كي أصعد السطح وأحاول جاهداً أن ألحق بأوّل الشمس، وإذا بي أرى يمامةً يكاد أن يكتمل ريشُها وسط الحمام جالسةً في خوف، ولا أعرف كيف دخلت، أدخلتها إلى قفص واسع، من حمامات السطح، كي لا يقتلها الحمام الكبير، وخرجتُ كي ألحق الشمس، كانت السماء هناك رحبةً وأكثر من يمامةٍ هناك تحوم والطيورالأخرى بدأت في الطيران، وسطوح البيوت على همومها نفسها، والشمس قد وصلت وحطّت على الأسلاك، ودخلت بقوة إلى الحمام، هل صعدت السطوح وكانت غائمةً بعد، ثم أشرقت فجأة، لا أعرف؟ الشمس حلوةٌ حينما يسند الواحد ظهره ويتذكّر هفواته أو زلّاته أو حتى خطاياه، هل يكفّر الواحد عن خطاياه بتأمّل الشمس وبإمساد الحمام بالقشّ الرقيق كمساعدة على بناء الأعشاش والألفة. فجأة، من بين الأسلاك، سمعت صخباً جميلاً في ذلك القفص الذي ركنت فيه اليمامة، وجدت حمامة القفص تطعم اليمامة والشمس هناك تبارك الاثنين بمحبّتها.

هل المعارضة السورية غير الرسمية بخير؟

احمد مظهر سعدو

إذا كان الواقع يفيد بأن المعارضة الرسمية السورية ليست بخير، وأن أداءها السياسي والتنظيمي، ضمن الواقع السوري، وعلى مساراته المتعدّدة، يشوبه ويلفّه كثيرٌ من حالات التعثّر والفوات، ومن ثم قلة الحيلة، والعجز عن إنجاز ما هو أفضل في جل مسارات المسألة السورية، بعد مضي 13 عاماً خلت، من عمر ثورة الشعب السوري، ثورة الحرية والكرامة، فإن النظرة الموضوعية والجادة والمنصفة، لابد من أن تتناول المقلب الآخر من المعارضة السورية، وقوى الثورة التي توجّه النقد الدائم لجملة أداء المعارضة الرسمية، بل تحاول أن تسحب البساط من تحتها، في حالات كثيرة، ثم تضعها في «خانة البك» واللاجدوى، فهل استطاعت هذه القوى الكثيرة والمتعدّدة، أن تخرج بإنجاز واقعي ميداني يلقي بظلاله على حاضر ثورة السوريين ومستقبلهم، أو تخرجهم من عنق الزجاجة؟ أم أنها ما زالت هي الأخرى تعثّر في معظم خطواتها، وتتعثّر في إنجاز أي خطوة حقيقية، يمكنها إعطاء الأمل لمستقبلات أفضل وأنجع لثورة السوريين؟ والجواب العاقل والموضوعي وغير المتحيّز إلى أي من هذا الخطل في الواقع السوري يقول: لقد حاولت منصّات وتشكيلات كثيرة في المعارضة السورية، على امتداد الجغرافيا السورية، وخارجها في باحات المنافي، أن تنتج جسماً موازياً أو بديلاً وقادراً على إنتاج ما هو أفضل وأرقى وأكثر تلبية للواقع والضرورات، وأكثر تماسكاً، أو أعمق، ويتجذّر منطقيّاً في الواقع السوري، ويحاكي المنعرجات والمسارات المتعدّدة للمسألة السورية، لكنها جميعاً كانت متعثرة، وغير قادرة على المتابعة، أو اجتراح الحلول الممكنة والقادرة على المضي نحو غاياتها، والاشتغال بحقّ نحو مؤتمر سوري عام، يُنتج حالة معارضة سورية أقوى وأمثن وأكثر تماسكاً، ويعود ذلك لأسباب كثيرة، منها:

- عدم توفر الأرض المناسبة والحرّة، بدون ضغوط، وبدون عملية اجتواء، والتي يمكنها تحقيق وقيام الجسم العريض والجامع للجميع، بكل ألوان الطيف السياسي، يمكن عبرها من اللقاء وتحقيق حالة من الإجماع الوطني السوري، القادر على إعادة إنتاج الواقع السوري الجديد وفق محدّدات حداثوية تتجاوز كل العثرات الكبيرة، التي أودت بالمعارضة الرسمية السورية خلال السنوات السابقة إلى ما هي عليه من ضياع وتذرّر ومحاصصات مصلحية نفعية.

- كذلك، حالت الأيديولوجيا، مرّة أخرى، دون لقاء السوريين، وكانت، في معظم الأحيان، معوقاً جدّياً ساهم في منع اجتماع كل ألوان الطيف السياسي والعسكري السوري، الذي ما زال يعاني من صراعات ومناكدات أيديولوجية، تساهم في حالة التشظّي الكبرى التي تعيشها المعارضة غير الرسمية السورية.

- غياب إن لم يكن تغييب العقل النقدي الواعي والواضح، والذي يمكنه، فيما لو وجد، أن يتجاوز كل المقدّسات الفكرية أو السياسية، ويعي أن الوعي النقدي بات ضرورة حياتية، لتحقيق أيّ خطوة إلى الأمام يمكن البناء عليها، إن غياب هذا الوعي النقدي، والعقلانية النقدية في السياسة والفكر، ما زال يحول دون الوصول إلى توافقات وتفاهمات على الخطوط العريضة، التي لابد من الائتكاء عليها، ضمن عمليات البناء، من منطلق أن النقد المزدوج طريقٌ للاستيعاب وليس العكس.

- ولا يبدو أن ما وقعت فيه المعارضة الرسمية السورية من تمظهرات جمّة للزعامات والانتهازية السياسة، والتحكّم بالقرارات الوطنية، كان بعيداً عن خطوات المعارضة البديلة، التي لم تتمكّن بعد من الخروج حقيقة، من حالة الزعامات والمصالح والتكتّلات التي تصبّ في خانة الانتهازية والوصولية، والتي تُنتجُ من معين الفكرة التي تقول «إن الأنظمة المستبدّة تُنتج معارضات على شاكلتها».

وهذا الواقع الحقيقي ما انفكّت تعاني منه معظم التجمّعات والتكتلات، وكل الدعوات نحو البديل الحالم، والمناكف للمعارضة الرسمية السورية.

- علاوة على أن كل هذه التجمعات واللقاءات التي التأم شملها في غير مكان من الفضاء الجغرافي الكبير، الذي يجمع السوريين، ما زالت غير قادرة واقعيّاً، على القيام بمهام العمل الوطني، ضمن الحالة الديمقراطية الأرقى، التي لا ضيْر أنها باتت ضرورة ومهمّة، حتى تكون هناك مبرّرات لوجود هذه المعارضة البديلة، حيث خرج الشعب السوري بالأساس (في ثورته) لكنس الطغيان والقمع والاستبداد، وبالتالي، تحقيق دولة المواطنة في سورية، وسيادة القانون، وإشاعة الحريات العامة، وحقوق الإنسان، ووقف استلاب الإنسان السوري وهدره، بعيداً عن كل حالات الدكتاتوريات والطغيان وتمظهراتها، وإلا فإنك تكون كمن يقول: «كانك يا زيد ما غزيت».

> الواقع السوري اليوم، مع السنة الثالثة عشرة من عمر ثورة الحرية والكرامة، ينبئ بمصائر صعبة ومضنية ومشوبة بكثير من التعثّر

- حال تذرّر المعارضة الرسمية، وغير الرسمية منها، دون تحقيق الجسم التنظيمي الكبير والجامع، والذي يلم جميع فئات الشعب السوري، بكل إثنياته وطوائفه، والوانه السياسية، فليس هناك حالياً من تنظيم سياسي سوري، او جسم، أو تجمّع ما، يتجاوز عديد القوى أو الأفراد المنضوية فيه أو تحته بضع العشرات، أو المئات في أحسن الأحوال، ولعلّ في ذلك ما يشير إلى ضالة الإمكانيات، وعجز (وغياب) الأدوات عن التعويض بأي بديل حقيقي قوي يعطي الحالة السورية بعداً متماسكاً وقوياً بشكل أفضل.

- وهنا أيضاً لابد من أن نقول وبوضوح وصراحة: إن الكثير من تجمّعات المعارضة غير الرسمية وتشكيلاتها، التي هي اليوم موضوع البحث، ما برحت تحاول إمساك العصى من المنتصف، فهي ترفض الدعم الخارجي، أو تتمنّع عنه إعلامياً، حتى لا تصبح أحوالها شبيهة بأحوال المعارضة السورية الرسمية، لكنها، في واقع الأمر، وضمن مساحتها الداخلية، ما زالت عينها على ذلك الدعم وفوائده، و«تحاول فيه ملكًا» وحركة ما أمكنها إلى ذلك، وهو ما يجعلها أسيرة تصوّراتها المتردّدة هذه، والتي يمكن أن تنتج حالة بديلة للمعارضة السورية، لكنها هنا من الممكن أن تقع تماماً بما سبق ووقعت به تشكيلات المعارضة الرسمية السورية، عندما راهنت، منذ بداياتها بعد عام 2011، على وضع كل بيضها في سلّة الخارج، وأوصلت الواقع السوري إلى هذه المآلات من المعاناة البائسة.

الواقع السوري اليوم، مع السنة الثالثة عشرة من عمر ثورة الحرية والكرامة، ينبئ بمصائر صعبة ومضنية ومشوبة بكثير من التعثّر، وكثير من سمات الاستنقاع في الحالة والمسألة السورية التي تعاني فيها وعبرها من احتمالاتٍ كثيرة، تعيق أي عملية إنجاز أفضل وأرحب نحو الحلّ السياسي، أو إنفاذ القرارات الدولية ذات الصلة وتحقيقها، ضمن أجواء المشهد العربي والدولي والإقليمي، من الاستنقاع والعجز والتخلّي عن المسألة السورية برمتها، نتيجة هذه التعثرات التي يتحمّل مسؤوليتها أولاً وأخراً كلا النوعين من المعارضة الرسمية بمصالحها ومحاصصاتها، وغير الرسمية بتشتّتها وضياع بوصلتها، وإصابتها بمعظم ما أصاب المعارضة الرسمية، من دوار وأمراض، لا يبدو أنها أصبحت قاب قوسين أو أدنى من الشفاء منها، أو الخروج من عنق الزجاجة فيها.

(كاتب سوري في غازي عنتاب)

مسلسلات رمضان والهويّات الجامعة... في الثّقافة السّياسية الغائبة

محمد سي بشير

لا يمرُّ علينا رمضان، في كلّ عام، إلا ونُزداد فيه تفرّقا على التّفرُّق الذي تثيره المسائل السّياسية فيما بيننا، في العالم العربي، وهذه ظاهرة لا تمسّ بلدا دون آخر، بل تجدها ملحوظةً في طول الفضاء العربي وعرضه. وبا ليتها كانت قضايا عابرة تلك التي تثير النُّفوس والعواطف وترتفع بها أصوات المنتقدين، بل يتعدّى الأمر إلى المساس بالثوابت التّاريخية والمبادئ، الرموز والشّخصيات المُجمع عليها، وهي، في محصّلتها، تشكّل الأمور الجامعة فيما بين كل فئات المجتمع قبل أن تطرأ عليها عوامل التناول العابر والسّطحي لتُثار، على الملأ، في أعمال درامية، ترتكز على الخيال أكثر ممّا تثير الواقع، ولكنها تترك آثارها المدمّرة على المجتمعات العربية. يتعلّق الأمر، هنا، بظاهرتيْن تحتاج كلّ منهما إلى التمحيص، وصولاً إلى قضية محورية لم يجر الاتفاق عليها في المجتمعات العربية، وهي الهويات الجامعة أو الخطوط الحمراء التي لا يجب أن تكون موضعاً للإثارة، بما يجعلها قضايا خلافية، كونها تشكّل الإسمنت الذي يقوّي التوافق المجتمعي والتناسق الاجتماعي، في كل الفضاءات العربية.

تتصل الظّاهرة الأولى بغياب الثّقافة السياسية التي تكون حاكمة لقضايا مجتمعية تتعلّق بمصالح كلّ المجتمع، وليس بفئة دون أخرى، إذ يقتضي التّعايش التّوافق، وهو ما يجعل منها إشكاليات محورية تنتمي إلى تلك القضايا المحورية التي عليها مدار التّوافق المجتمعي أي بين كلّ فئات المجتمع، على أن لا تُثار لا في أعمال أدبية ولا في أعمال درامية، بل تكون مثار تقديس مجتمعي، وتكون المنطلق لاجتماع الكلمة وتوحيد الرُّؤى لمواجهة تحدّيات تحتمل تعدّد الرُّؤى وتكون موضوعا لخلافات سياسية، على غرار المسائل الاقتصادية، السّياسات العامّة الخاضعة بالتّربية، التّعليم العالي، البحث العلمي، الصّحّة والثّقافة وغيرها ممّا تتعدّد الرُّؤى بشأنها، وتتحاز إلى أخذ ورد بين كل فئات المجتمع لاختيار الأصلح والأجدى بالاتباع والتّبنّي لما فيه صلاح المجتمع.

قد يتساءل المرء كيف لمسائل رمزية، تاريخية أو لها صلة بشخصيات مُجمع على احترامها، داخل المجتمعات، أن تكون في مصافّ الثّقافة السّياسية، ليكون الجواب بأنّ النّشأة السّياسية، أي التّربية على تقديس تلك المعطيات الجامعة بين فئات المجتمع يجب أن ترافق النّاس منذ صغرهم، وأن تكون حاضرة في كلّ النّقاشات الاجتماعية لتبلغ حدّ التّوافق المجتمعي، ولكيلا تتم إثارتها إلا في إطار خطوط حمراء يتضمّنها النّصّ القانوني الأعلى في الدّولة، وهو الدّستور، حيث يتمّ رفعها إلى مصاف القضايا المتّفق عليها، ولا يحقّ النّظر إليها إلا على أنّها مقدّسة يمنع، على الكلّ، وبأيّ شكل كان، أن تُثار، كونها من مقدّسات الأمّة. أمّا الظّاهرة الأخرى فهي تلك المتّصلة بجدليّة الخيال والواقع أي إثارة أنّ الأعمال الدّرامية، بما أنّها مخيالٌ لا يمتُّ بصلة إلى الواقع، يمكنه أن يناقش تلك المسائل ويطرحها، وكأنّها مسائل خلافية، سواء بصورة علانية أو من خلال الإشارات المبطّنة في لقطات أو مشاهد درامية، كما أنّ تلك الإثارة قد تنمُّ من خلال أعمال أدبية على غرار الرّوايات أو من خلال المنصّات الافتراضية، الآن، في عصر تكنولوجيا الاتّصال، وهي كلّها مقاربات للابتعاد عن المسألة الأولى المشار إليها، أعلاه، إذ إنّها، حتّى تتحصّل على أعلى نسبة من المشاهدة، بالنّسبة للأعمال الدّرامية، بصفة خاصّة، وبتحيُّنها فرصة ذروة المشاهدة التي يضمنها رمضان، الذي أضحى، رغم قدسيّته، محط تلك الطروحات المثيرة للجدل، تحتاج إلى هامش المخيال الدّرامي قصداً، إذ إنّها تريد المساس بالقضايا التّوافقية وتحوُّلها إلى مجرّد مسائل أخلاقية يقبلها بعضهم ويرفضها الآخرون من منطلق خرافة الحرّيّة الكاملة التي دونها تلك الخطوط الحمراء التي يجب أن تمنع وتردع عن تناول المقدّس من القضايا وإثارتها، وكأنّها ليست كذلك، بقصد تقسيم المجتمع وتحويل الحرّيّة إلى عبث أو ترف، بدلا من أن تكون هي الأصل. ولكن في حدود المحظور مجتمعياً، أي في حدود ما تسمح به الثّقافة السّياسية المتوافق عليها.

> أضحى العالم العربي ضحيّة لعدم التّمييز بين ما هو متوافق عليه، ضروري وحتمي، ويكون في مصاف الهويات الجامعة، وما هو محلي وجهوي

بالإشارة إلى الهويات الجامعة، للقضية، هنا، صلة بما يتّفق المجتمع على أنّه الجامع بين كل فئات المجتمع، لتعديلها أو تحويلها إلى مادّة يلوكها الخيال الدّرامي أو تتضمّنها روايات أدبية، ولا مقالات صحافية أو افتتاحيات، لكن ثمّة خطا يقع فيه الفضاء العربي، كونه فضاء مغلقاً ولا يسمح بالنّقاش الحرّ، ولا بتعدّد الرؤى، وهو الخطا المتصل بالهويات الإبداع، أيا كان شكلُه، بل هو مراقبة قبلية لاحترام شروط تضمين العمل بالابتعاد، كل الابتعاد، عن تلك الهويات، إضافة إلى إثارة القضايا بما يحافظ على منظومة الأخلاق وقدسيّة الشهر الفضيل، بل يمكن لتلك الرقابة أن تمنع أعمالاً تتضمّن مغالطات تاريخية أو خلطاً بين الوقائع التاريخية والواقع المعاش حاليا، على غرار ما يتضمنه مسلسل «الحشاشين»، الذي تعرضه قنوات كثيرة، ويخلط بين قصّة القرامطة وإشكالية الولاء للمرشد أو القائد. إذا فهمنا إشكاليات الهويّات الجامعة والفرعية، وتمّ رفعها إلى مصاف الثّقافة السّياسية، وإذا أحطنا تلك الهويّات بالتّقديس العملي، أي بسياسة عامّة للرّقابة القبلية، من خلال سلطات ضبط، نكون قد ضمنّا خلافات طبيعية داخل المجتمعات العربيّة وضمنّا حرّية الإبداع والتّعبير، لكن في إطار التوافق المجتمعي التام، وهي سبيل التّوجّه نحو بناء التّناسق الاجتماعي الضروري للتحول والتّغيير، مستقبلا.

(باحث جامعي جزائري)

عن بوتين بين زمنين

باسل الحاج جاسم

عندما يتعلق الأمر بالانتخابات الرئاسية في روسيا، يُتوقع أن يكون لها تأثير كبير على المشهد السياسي الدولي، وعلى العلاقات الدولية بشكل عام، خصوصاً في ظل التوترات الجارية مع الغرب والتحدّيات الإقليمية المستمرة. وبالفعل، كما كانت قد أكدت كل التوقعات، فاز فلاديمير بوتين بولاية رئاسية جديدة، في الانتخابات التي جرت منتصف مارس/ آذار الجاري، وهو الذي يتمتع، بعد مرور 25 عاماً على حكمه، بشعبية واسعة في بلاده، ويحظى بدعم قوي من النخبة السياسية والعسكرية، مع غياب أي منافس حقيقي له. وشغل بوتين منصب الرئيس لولايتين امتدت كلّ منهما أربعة أعوام، وولايتين أخريين كل منهما ستة أعوام، فصلت بينهما فترة كان خلالها رئيساً للوزراء (2008-2012)، وشهد عهده في عام 2020، تعديلاً دستورياً يتيح له البقاء في الحكم حتى 2036. وإذا ما تحقق له هذا، فإنّه سيكون قد أصبح الحاكم الأطول عمراً في تاريخ روسيا، متغلباً على الزعيم السّوفيتي جوزيف ستالين والإمبراطورة كاثرين في القرن الثامن عشر، اللذين غلبا في السلطة أكثر من 30 عاماً.

يؤدي إلى استمرار التوترات الدولية. وبينما يستعدّ للاستمرار سبّ سنوات أخرى على الأقل، يراس بوتين اقتصاداً نجا (حتى اللحظة) من العقوبات الغربية التي لم يسبقْ لها مثيل، ويخوض معركة لم يحقّق فيها بعد تقدّماً حاسماً. ومن زاوية ثانية، هناك يوادر على التململ وسط التحالف الغربي، وخصوصاً في واشنطن، حيث قد تؤدّي الانتخابات الرئاسية في نوفمبر/ تشرين الثاني المقبل إلى توقف الدعم الأميركي لأوكرانيا، كما أن دولاً أوروبية شهدت صعود اليمين المتطرف، وقد اتصف حكم بوتين، منذ وصوله إلى الكرملين/أواخر تسعينيات القرن الماضي، بسمتيْن رئيسيتيْن: أولاهما التصلّب المستمرّ في التعامل على طبقة الأثرياء الأوليغارش، وحرب الشيشان الثانية، والمعارضين الذين يتهمهم بالتبعية للغرب. والثانية إدراكه أهمية اكتساب السلطة الجيوسياسية في فضاء ما بعد الاتحاد السوفييتي. وإقليمياً، وجرى تطهير المشهد السياسي من كل المنافسة، إلّا أن من المتوقع أن يستمر بوتين في تبنّي سياساته القوية في مواجهة كل التحدّيات، ما

وعدد أقلّ من السلع الأجنبية، وشعور بالعزلة، على الأقل عن الدول الأوروبية. وبالنسبة للكرملين، من شأن الفوز الساحق في الجولة الأولى أن يمنح بوتين طابعاً جديداً من الشرعية ويبعث رسالة واضحة مفادها بأن سياساته تجاه أوكرانيا والغرب عموماً تحظى بالدعم الكامل من شعبه، بينما يظلّ مستقبل أوكرانيا، وبشكل عام، مرتبطاً بتطورات العلاقات مع روسيا والغرب وبينهما. ويمكن القول إنّ موسكو قدّمت الأسبوع الماضي دليلاً على أن الروس يلتفون حول بوتين بعد أكثر من عامين على اشتعال الأزمة الأوكرانية، لكنّ نسبة 87% التي حصل عليها زعيم الكرملين لن تقنع الزعماء الغربيين بأنها انعكاس حقيقي لمستوى شعبية بوتين حالياً. وصحيح أنّ التنبؤ بمسار عمل بوتين في مرحلة ما بعد الانتخابات أمر بالغ الصعوبة. لقد نجح الزعيم الروسي في حماية اقتصاده من العقوبات على المدى القصير، فمصانع ذخيرته تتفوّق في إنتاجها على الولايات المتحدة وحلفائها الأوروبيين. وجرى تطهير المشهد السياسي من كل المنافسة، إلّا أنّ من المتوقع أن يستمر بوتين في تبنّي سياساته القوية في مواجهة كل التحدّيات، ما يؤدي إلى استمرار التوترات الدولية. وبينما يستعدّ للاستمرار سبّ سنوات أخرى على الأقل، يراس بوتين اقتصاداً نجا (حتى اللحظة) من العقوبات الغربية التي لم يسبقْ لها مثيل، ويخوض معركة لم يحقّق فيها بعد تقدّماً حاسماً. ومن زاوية ثانية، هناك يوادر على التململ وسط التحالف الغربي، وخصوصاً في واشنطن، حيث قد تؤدّي الانتخابات الرئاسية في نوفمبر/ تشرين الثاني المقبل إلى توقف الدعم الأميركي لأوكرانيا، كما أن دولاً

> التنبؤ بمسار عمل بوتين في مرحلة ما بعد الانتخابات أمر بالغ الصعوبة

(كاتب عربي في أستانة)

تأجيل إعلان جائزة محمود درويش الخطأ والخطيئة

زياد بركات

لا تبدو مقنعةً الأسباب التي ساقها القائمون على جائزة محمود درويش للإبداع لتأجيل إعلان الفائزين بها هذا العام، وهي الجائزة الأرفع شأناً فلسطينياً، كونها تحمل اسم واحد من أهم شعراء العربية وأبرزهم في القرن العشرين، وسبق أن فاز بها منذ إعلانها عام 2010 عدد كبير من المبدعين العالميين والعرب والفلسطينيين، منهم أهداف سويف وبرايتن برايتباخ ونعوم تشومسكي وأليس ووكر وخوان غويتسولو وسلمى الخضراء الجيوسي وصنع الله إبراهيم. قال رئيس أمناء مؤسسة محمود درويش، زياد عمرو، في معرض تبريره تأجيل الإعلان عن الفائزين بالجائزة التي تُعلن في ذكرى مولد درويش في 13 مارس/ آذار من كل عام، إن الحرب لم تتح المجال أمام المؤسّسة لتنظيم النشاط اللائق بإحياء ذكرى ميلاد درويش، «مع يقيننا أن شعبنا يسطّر صموداً فوق أسطوري سيخلّده المبدعون لاحقاً بأشكالٍ متنوعة»، وأظن أن هذا بالضبط ما كان يُوجب إعلان الجائزة هذا العام لا تأجيله، فحرب الإبادة غير المسبوقة على الغزّيين تتطلب روافع ثقافية مساندة تستفزّ عناصر القوة والبقاء، لدى الفلسطينيين أجمعين. وعلى اختلاف فعاليّاتهم، لمواجهة التوحّش النازي الذي يهدف لاقتلاع الفلسطينيين لا من أرضهم وحسب، بل ومن التاريخ أيضاً. وقدْهم في فراغ الأمم باعتبارهم مجموعاتٍ سكّانية لا إرث لهم ولا تأثير، ولا ثقافة تصهر وجودهم في المكوّن العالمي للبشرية. ورغم أن المقارنة مُجحفة نشير هنا إلى النشاط المحموم وإنْ لم يكن كافياً، الذي تقوم به وزارة الثقافة الفلسطينية في توثيق الجزيرة المفتوحة في غزّة وتاريخها، عبر إصدار كتبٍ تسرُدُ عن وقع الإبادة على الكتّاب والمبدعين في غزّة أو إقامة المعارض التشكيلية التي تستعيد لوحات وإبداعات فنّاني غزّة وتعيد اكتشافهم، ومنهم من قُتل تحت القصف، مثل التشكيلية هبة زقّوت، أو بسبب نقص الدواء، وتعثّر العلاج مثل التشكيلي فتحي غبن. ولا نعرف بعد لماذا لا تقوم السفارات الفلسطينية بما هو أقلّ مما نطمح على الأقل، فتترجم بعض يوميات الرازحين تحت حصار البارود والموت إلى اللغات التي توجد فيها هذه السفارات وتُحسن توزيعها، كما لا نعلم الأسباب التي تحول دون إقامة معارض تشكيلية أو أسابيع ثقافية فلسطينية هناك. ولك أن تتخيّل تأثير إقامة معرض تشكيلي للراحلة هبة زقوت التي قتلها رصاص الإسرائيليين في أروقة الأمم المتحدة، مع توزيع كتيّب يعرّف بها وبإنتاجها، ويعرض مأساة أن تكون امرأةً ومبدعة في قطاع غزّة، وأي بطولة في أن تبقى وتبدع هناك تحت مطر الصواريخ الأسود الذي يأتي على الأخضر واليابس هناك.

كان بإمكان القائمين على مؤسّسة محمود درويش التقاط اللحظة التاريخية النادرة التي تؤكّد دور الثقافة في تماسك الفلسطينيين وتصليب هويتهم الوجودية تحت الاحتلال، وأخذ زمام المبادرة للقيام بما لم تبادر إليه السلطة الفلسطينية ومن ورائها منظمة التحرير، بإعلان الجائزة لا في رام الله بل في إحدى العواصم المؤثّرة، نيويورك أو باريس مثلاً، خلال أسبوع ثقافي فلسطيني يقدّم هذا الشعب للعالم شعباً يستحقّ الحياة، والدفاع عنه وعن وجوده، نظراً إلى مساهماته الكبيرة في الثقافة العالمية، خصوصاً أن أعضاء مؤسّسة درويش شخصياتٌ تتمتع بثقل ثقافي يتخطّى محيطها العربي، وبعضهم شخصياتٌ مرموقةٌ ومعروفةٌ في أوساط الثقافة الأوروبية، وقادرة، بقليل من الدعم على حشد مثقفين ومبدعين عالميين يتمتّعون بمصداقية عالية في مجتمعاتهم في أي تظاهرةٍ ثقافية يقومون عليها، لكنّ عطباً غير مفهوم في الروح الفلسطينية يبدو أنه يُلقي بظلاله السالبة السوداء على هذا الشعب، فيُقعد نخبه عما هو واجبٌ ملحٌّ، بل ويلجمُهم إلى القيام بما يخالف ذلك. كان يؤجّلوا ما يفترض أن يكون فرصةً نادرةً لإسناد مقاومة الغزّيين بما يليق بهم وبتضحياتهم.

المغرب في مؤشّر التنمية البشرية

محمد احمد بنّيس

احتلّ المغرب المرتبة 120 في مؤشّر التنمية البشرية الذي أصدره برنامج الأمم المتحدة الإنمائي (UNDP)، الأسبوع الماضي، متقدّما ثلاث مراتب. إذ كان قد حلّ في المرتبة 123 في تقرير السنة المنصرمة. ويُعدُّ هذا المؤشّر مرجعاً رئيساً لقياس مدى التطور الاقتصادي والاجتماعي في العالم. ويعتمد في ذلك على متوسّط العمر المتوقع، ومتوسّط سنوات التمدرس المتوقع، ومتوسّط الدخل الإجمالي للفرد. ومن هنا، يكتسي صدورُه أهمية قصوى، خصوصاً في بلدان الجنوب، التي لا يزال كسب معركة التنمية بالنسبة لها تحدّياً سياسياً ومجتمعياً، فهو يقدّم صورة لما تحقق وما لم يتحقق على صعيد التنمية. كما أنه يمكن اعتبارُه مصدراً لصياغة السياسات الاجتماعية وإدارة أولوياتها وفق المراتب التي يتم إحرازُها في سلم التنمية البشرية، وبالأخص في قطاعيْ التعليم والصحة، بالنظر إلى أهميتهما المركزية في بناء نماذج تنموية متوازنة تساعد على الاستقرار السياسي والاجتماعي. لم ينجح المغرب، وفق مؤشّر هذه السنة، في الابتعاد كثيراً عن البلدان التي عادة ما تصنّف الأقلّ تقدماً، هذا على الرغم من الجهود المبذولة في السنوات الأخيرة في أكثر من قطاع. وسبق أن رصدت تقارير سابقة، وطنيّة ودولية، الصعوبات التي تجابه الفاعلين المعنيين في تحقيق الحدّ الأدنى من التنمية

أميركا في إحدى لحظات تجلّي الفوضى

دلال البزري

عام 1956. العدوان الثلاثي على مصر. ثلاثة معتدين: إسرائيل، الناشئة، وبريطانيا وفرنسا، الاستعماريتان الآخذتان بالانطفاء. الحرب العالمية الثانية انتهت منذ عقد. والحرب الباردة في طريقها إلى التبلور، بين «جبّارَيْن»: الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي. وهذا العدوان هو امتحانٌ للجبّار الأول، أميركا. على المستعمِرين السابقين أن يفهموا أنهم لا يستطيعون خوض حرب من دون قيادتهم لها. ونظراً إلى أنها «جبّارة» في أولى طلعاتها العالمية، على أميركا أن توقف هذه الحرب فوراً. وهذا ما يحصل، وما يشير، في الوقت ذاته، إلى أنّ بريطانيا وفرنسا في سبيلهما إلى التراجع أمام أميركا التي أنقذتهما من الخراب والإفلاس، إثر نهاية الحرب العالمية الثانية، بفضل مشروع مارشال السخي. انهار الاتحاد السوفييتي. وأميركا، وبعد رحلتها الإمبريالية القصيرة، لا تستطيع أن تنأى بنفسها عن الفوضى العالمية الناجمة عنه، بعد عقودٍ من الحرب الباردة ذات القوانين والأعراف التي أدارت بها العالم بالاشتراك مع «العملاق» السوفييتي، فطموحها بقيادة العالم بمفردها لم ينجح. الصين صاعدة، وروسيا (وريثة السوفييت) «صامدة» بغزوها أوكرانيا. وتحالفات الاثنين تبدو وثيقة مع دول أخرى، عكس أميركا التي يتأرجح أصدقاؤها بينها وبين هذا «المحور» الجديد. والعالم يتحرّك، يفاجئ، يثير البلبلة. وأولوية أميركا بمواجهة الصين تدفعها إلى الانسحاب، أو التذبذب، أو الإخلال بالالتزامات في مناطقها القديمة... فتنسحب، أو تراوغ، أو ترقّع... معتقدةً أنها بذلك ستتغلب على منافسها الأعظم. العلامة الأبرز على هذه الانسحابات في الشرق الأوسط: تراجع أوباما عام 2013 عن «خط أحمر» وجّهه إلى بشّار الأسد في حال استخدم «الكيماوي» ضد أهله. قبل ذلك، انسحابه الخائب من العراق (بقي ألفان وخمسمائة جندي هناك). وبعده، كان انسحابه من أفغانستان. فاعتمدت أميركا سياسة «القيادة من الخلف»، أي إدارة حلفاء أو مجموعات ودعمها (ليبيا، الأكراد...). ولكنها فشلت، وبدت عديمة القدرة على القيادة، خططها وتوجّهاتها غير مفهومة تماماً... حتى لقّبت في الآونة الأخيرة بدولة «منعدمة القيادة». لم تعُد أميركا تقود العالم، أصابتها فوضاه في الصميم. خذْ مواقفها من الحرب على غزّة. في بدايتها، كاد رئيسُها ووزير خارجيتها أن يبكيا في أحضان نتنياهو، لشدة تأثرهما بضربة 7 أكتوبر/ تشرين الأول. نشر الأميركيون حاملات الطائرات، أرسلوا الذخيرة، ألقوا «الفيتو» لصالحها في مجلس الأمن... إلى ما هنالك من أشكال التضامن مع حليفتهم التاريخية. وسرعان ما بدا ارتباكها في التعامل مع هذه الحرب، بعد هذه البداية الحارّة، لسانها أولا. بخجل وتهذيب، أخذ رئيسها ووزير خارجيتها يطالبان نتنياهو بلفتات إنسانية. تكرّرت هذه الكلمات، ولم تفلح. وكانت مسألة اجتياح رفح، واشتراطها عدم النيْل من المدنيين اللاجئين إليها. ثم تصاعدت اللهجة، فخطوات عملية، من نوع زيارة بني غانتس لأميركا، وهو المعارض لنتنياهو، ولقاءاته مع مسؤولين كبار، منهم نائبة الرئيس كامالا هاريس، فمزيد من التصريحات المؤنّبة، وخطوات عملية، مثل عقوبات على بعض المستوطنين وعلى مراكزهم...

> ما هو بالضبط الذي دفع أميركا إلى «تعديل» موقفها من إسرائيل، تجاوزت فيه تاريخ علاقتها مع إسرائيل، وقد وُصِفت يوماً بـ«العضوية»؟

> هل يكون الخلاف المقبل بين الولايات المتحدة وإسرائيل وقف توريد السلاح الأميركي إلى إسرائيل، أو التخفيف من نوعِه أو كمّياته؟

وكلمات جديدة يدلي بها جو بايدن، هي الأولى من نوعها: في خطاب الاتحاد السنوي أولاً، كان عرضاً مفصّلا للمآسي الإنسانية لأهل غزّة، ومتعاطفا معهم، وخلاصة أن المساعدات الإنسانية لا يمكن التعامل معها كمسألة ثانوية، أو عملة تبادل. وبعد يومين، مع القناة التلفزيونية (أم.أس.إن.بي.سي)، نصح بايدن نتنياهو بأن لا يرتكب الخطأ الأميركي نفسه في العراق وأفغانستان. حذّره من مواصلة هجماته وحصاره لغزّة، وطالبه صراحة «بوقف إطلاق النار». ورفض، في الوقت عينه، وضع «خطوطٍ حمراء» بشأن توريد السلاح إلى إسرائيل.

وبعيْد مجزرة الطحين المروّعة، التي راح ضحيّتها أكثر من مائة غزّي جائع، معطوفة على إغلاق معابر المساعدات، أو التشديد والتضييق على القليل منها، وتظاهرات اليمين المتطرّف لمنع دخول القليل منها، كان مشروع بناء ميناء، يعالج التجويع، وربما يحمل معه أيضا، في المستقبل كما أوحي، موادّ بناء ولوجستيات على أنواعها. ثم «الزلزال» الذي أحدثه تشوك شومر، أقوى شخصية يهودية أميركية، ورئيس الغالبية في البرلمان الأميركي. انتقد نتنياهو بشدّة، وانشغاله بزيادة أعداد القتلى المدنيين في غزّة، ما «أفقد إسرائيل احترام العالم لها». والأهم أنه رأى في الدولتين اليهودية والفلسطينية الحلّ الدائم. لاقى تصريح شومر تأييدا من النواب والبرلمانيين الديمقراطيين، بدا كأنه علامة البدء على «جدّية» اميركا بإسقاط نتنياهو. الميناء فكرة سريعة. بُنيت على لوجستيّات متوفرة. مقاولو الكوارث والأعمال الخيرية، أفراد من الجيش الأميركي («لن يطأوا أرض غزّة...»)، سفن كبيرة وأخرى أصغر منها، واكتمال البناء خلال شهرين، وبدء وصول أغذية يُفترض أن تسدّ الجوع الذي ينهش أهل غزّة. ومشكلة هذا الميناء أنه ليس معروفاً بعد كيفية تشغليه. من سيربط السفن باليابسة قبل بناء الرصيف؟ من سيحرُس وحدات الهندسة الأميركية؟ من سيوزّع الوحدات الغذائية؟ من سيقوم بحملة تمويل بناء المرفأ وتشغيله؟ من سيفرغ الحمولات؟ من سيوزّعها؟ أو يحرسها؟ وأين ستُخزّن؟... إلخ. كلها أسئلة مرهونة بالمستقبل الذي ينتظر غزّة. بعد نسف «أونروا» وشلّها، بعد رفض العشائر استلام الوظيفة، بعد تشكيل محمود عبّاس الحكومة الجديدة التي ترفضها حركة حماس وحلفاؤها.

والردّ الإسرائيلي على تبدّل الموقف الأميركي: أن الرأي العام الإسرائيلي يدعم «انتصاراً كاملاً على حماس»، يرفض أي إملاءاتٍ دوليةٍ تهدف إلى إقامة دولة إرهابية، يرفض «عودة السلطة الفلسطينية إلى غزّة»، وان إسرائيل ليست «جمهورية موز»، أي أنها ديمقراطية، و«الغالبية الإسرائيلية تريد استمرار الحرب». وهذه عيّنة من أقوال صدرت عن إسرائيل، خلاصتها أنها «حريصةٌ على سيادتها الوطنية» (بمن تذكّر «السيادة الوطنية»؟). أي أن الموقف الأميركي ليس مطابقاً لمواقف إسرائيل كما عهد في الماضي... فهل يكون الخلاف المقبل بين الاثنين وقف توريد السلاح الأميركي إلى إسرائيل، أو التخفيف من نوعِه أو كمّياته؟ الإجابة عن السؤال تشبه فوضى القيادة العالمية. اعتبارات شخصية، شغف بايدن بإسرائيل، منذ أولى أيامه الباكرة. قوله إنه لن يضع «خطّاً أحمر على تسليح إسرائيل»، لن يوقف تسليمها «القبّة الحديدية» التي تحميها. أيضا: خشية معلنة لدى الأميركيين من أن يؤدّي وقف التسليح إلى زيادة عزلة نتنياهو، فيفيض إجرامه على غزّة، وتتويجه «بطلا قوميا» لدى الإسرائيليين. علما أنه يمكن لإسرائيل التسلّح من مصادر أخرى، وهذه إشارة صغيرة إلى تلك الفوضى... ثم ترجيحات «المصادر» الأميركية أن أميركا قد تقطع فعلا السلاح عن إسرائيل إذا لم تتمكّن من زيادة حجم المساعدات إلى أهل غزّة.

التشكيك الفلسطيني بهذه الوجهة مشروع: وزارة الخارجية الفلسطينية رأت في بناء ميناء غزّة «تطبيقا لخطة إسرائيل بتكريس الاحتلال والفصل بين الضفة الغربية والقطاع»، وتوجّست من «إمكانات تهجير أهالي القطاع والمساهمة في خطط إسرائيل في التطهير العرقي للفلسطينيين». وقد اعتبر رئيس المبادرة الوطنية الفلسطينية مصطفى البرغوثي، الأقرب إلى «حماس»، أن بناء المرفأ «تهرّب من المسؤولية القانونية والأخلاقية عن الحصار على غزّة». وأضاف: «لو أرادت الولايات المتحدة تستطيع إجبار إسرائيل على فتح كل المعابر خلال 24 ساعة».

الآن، الذي دفع أميركا إلى «تعديل» موقفها من إسرائيل، تجاوزت فيه تاريخ علاقتها مع إسرائيل، وقد وصِفت يوما بـ«العضوية». ما هو بالضبط؟ الحسابات الانتخابية طبعاً، بعدما برز الصوت العربي معاقباً بقوة بايدن في انتخابات «الثلاثاء الأكبر». والمناخ الذي تعرفه أميركا، بالشرائح التي لم تكلّ ولم تملّ من رفع صوت غزّة، ومنها يهودية. أيضاً، استجابة لكبار الموظفين والنواب والإداريين الأميركيين الذين تعاطوا بحساسيةٍ بالغةٍ مع المجازر الإسرائيلية. كذلك: الجو العام الشعبي، الغربي والعربي، الإسلامي، الأسود، الأقلياتي... الذي وضع القيم الغربية الحديثة والإنسانية في الحضيض. والوجه الأسود لأميركا، الداعمة لفظائع إسرائيل.

كل هذه المعْمعة هل كان لها أن تسود لو كانت أميركا في عزّها؟ لو لم تكن فقدت رؤيتها الاستراتيجية نتيجة اهتزاز أوهامها بشأن قيادة العالم بمفردها بعد نهاية الحرب الباردة؟ لو لم تكن هذه المرحلة هي بطبيعتها متقلبة، رجراجة، غير مفهومة دائماً، خطرة عليها... وولّادة فوضى قد تشهد غزّة أوجها؟

(كاتبة لبنانية)

في ارتباك الموقف الفلسطيني من مشروع رصيف غزّة البحري

حيان جابر

أعلن الرئيس الأميركي، جو بايدن، في خطابه حالة الاتحاد السنوي 2024/3/9، عن قراره إنشاء رصيف/ ميناء بحري مؤقت أمام سواحل قطاع غزّة، بغرض استقبال سفن المساعدات الإنسانية، في ظلّ تعنّت الاحتلال ومواصلته جرائمه بحقّ قطاع غزّة وقاطنيه (أكثر من مليوني فلسطيني)، بالحصار والتجويع والإبادة الجماعية. تراوحت التصريحات الأميركية بشأن فعالية الميناء البحري المؤقت بين من اعتبره بوابةً لإدخال مليوني وجبة غذاء يوميّاً إلى قطاع غزّة، ومن عبّر عن قدرة الميناء على إدخال ما يعادل حمولة مائتي شاحنة مساعدات في اليوم الواحد. لكن وبعيداً عن فعالية الميناء المؤقت، تنص الخطّة الأميركية على تفريغ حمولة سفن الشحن في الرصيف المؤقت، ومن ثم نقلها برّاً إلى قطاع غزّة عبر جسرين برّيين طول كلّ منهما نحو 550 مترًا. كما أعلن بايدن عن تولّي الجيش الأميركي مسؤولية بناء الرصيف البحري المؤقّت وحمايته لاحقًا، من دون وجودٍ عسكريٍ أميركي داخل قطاع غزّة.

أثارت الخطّة الأميركية ردود أفعالٍ مختلفةً فلسطينيةً وإقليميةً ودوليةً، تمحورت حول مسائل عديدة، أولها مدّة إنشاء الرصيف البحري المؤقت، معظم التقديرات تتحدّث عن 60 يوماً، ثانيها؛ الجدوى العملية: تسلّط معظم الانتقادات الضوء على أن حلّ الأزمة الإنسانية في قطاع غزّة يمرّ عبر إرغام الاحتلال على السماح لشاحنات المساعدات بدخول القطاع برّاً من دون أي عوائق، خصوصاً في ظلّ تكدس الشاحنات على الطرف المصري من معبر كرم أبو سالم، فضلاً عن إرغامه على فتح كلّ المعابر البرّية مع قطاع غزّة، وتسهيل مرور شاحنات المساعدات منها. ثالثها؛ تحكّم الاحتلال الصهيوني: لا تعمل الخطة الأميركية على كسر الحصار الصهيوني، بل تعمل بالتنسيق معه على إدارته، الأمر الذي يثير شكوكاً عمليةً مشروعةً بشأن ضمان تسهيل الاحتلال تدفق المساعدات الإنسانية إلى القطاع المحاصر مستقبلاً بحراً. رابعها؛ توزيع المساعدات: دخول المساعدات إلى القطاع المحاصر لا يضمن توزيعها على جميع الفلسطينيين، في ظلّ العوائق التي يفرضها الاحتلال، من قبيل منعه دخول شاحنات المساعدات إلى بعض مناطق القطاع، مثل الشمال، واعتداءاته المتكرّرة على مراكز المساعدات، واستهدافه المتكرّر شاحنات المساعدات، وإطلاقه النار على متلقي المساعدات في أثناء توزيعها، واستهدافه الدائم وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين (أونروا)، فضلاً عن استهدافه المراكز الحكومية الخدمية في قطاع غزّة، الطرف الذي يدير شؤون القطاع وسكّانه، وفي مقدّمتها توزيع المساعدات. خامسها؛ الأهداف الأميركية والصهيونية غير المعلنة، إذ تدور تكهناتٌ عديدةٌ بشأن تلك الأهداف، لبعضها طابعٌ أمنيٌ يتعلق بتهيئة البيئة الإقليمية والدولية لاستمرار عدوان الاحتلال على قطاع غزّة، أيّ استمرار حرب الإبادة الجماعية، وأخرى اقتصادية تتعلّق بإحكام سيطرة الاحتلال وأميركا على ثروات فلسطين البحرية، خصوصاً الغازية منها، فضلاً عن أهدافٍ سياسيةٍ تتمثّل في تسهيل عمليات الاحتلال الصهيوني الساعية إلى تهجير الفلسطينيين قسراً من فلسطين عموماً، ومن قطاع غزّة خصوصاً، إلى جانب تقويض نظام الحكم في غزّة، وبناء نظام بديلٍ عميلٍ وتابع للاحتلال.

> في ما يتعلق بإيصال المساعدات إلى محتاجيها، لا بدّ من التأكيد على دور «أونروا» ومسؤولياتها أمام القانون الدولي والأمم المتّحدة في هذا الشأن

> التواطؤ الأميركي مع جرائم الاحتلال، ومنها جريمتا التجويع والحصار منذ 17 عاماً، يجعل من الإشراف الأميركي والصهيوني على تنظيم شحنات المساعدات الإنسانية وتفتيشها مشبوهاً

سادَ الارتباك الوسطَ الفلسطيني بعد الإعلان الأميركي عن الرصيف البحري المؤقت، فمن ناحيةٍ أولى يمثّل كسر الحصار وإفشال حرب التجويع أولويّةً فلسطينيةً، الأمر الذي يجعل من أي خطّةٍ تساهم في ذلك خطوةً مرحبّاً بها. لكن ومن ناحيةٍ ثانيةٍ تطرح الخطّة الأميركية تساؤلاتٍ عديدةً بشأن النقاط المذكورة سابقاً. ويساهم الإرباك الفلسطيني في تعبيد الطريق أمام أميركا والاحتلال الصهيوني للمضي في تنفيذ الخطة من دون أي ضوابط، الأمر الذي يتطلّب موقفاً فلسطينياً سريعاً يساهم في ضبط الخطّة الأميركية بما يخدم المصالح الفلسطينية كاملةً، وأهمّها إفشال حرب التجويع التي يشنها الاحتلال أولاً، وحماية الحقوق الوطنية الفلسطينية ثانياً. انطلاقاً من ذلك، يجب بناء الموقف الفلسطيني على أسسٍ صلبةٍ وقانونيةٍ واضحةٍ، لا تقبل المناورة أو التأويل الأميركي والصهيوني بشأن بناء الرصيف وإدارته وحمايته، كما تتعلّق بإعداد شحنات المساعدات وتنظيمها والإشراف عليها. وأخيراً، تتعلق بإيصال المساعدات إلى محتاجيها.

يبعُد الرصيف المائي المؤقّت، وفق التسريبات الأميركية، عن شاطئ غزّة بنحو 600 متر، أي يقع ضمن ما يعرّفها القانون الدولي بـ«الحدود البحرية الفلسطينية»، أو البحر الإقليمي الفلسطيني الذي يصل إلى نحو 12 ميلاً بحرياً؛ والميل البحري يعادل 1609,34 أمتار، بناء عليه يعد التموضع العسكري، والأعمال العسكرية من دون الحصول على مواقفة الفلسطينيين وقبولهم تدخلاً قسريًا، واحتلالًا عسكرياً، لذا لا يحقّ للولايات المتّحدة أو سواها تكليف أيّ من فرقها العسكرية بأيّ عمل كان ضمن هذا الحيز الجغرافي، سواءً لأغراض البناء والإنشاء أو الحماية الأمنية مستقبلاً، كما تنصّ المادة 19 من اتّفاقية الأمم المتّحدة لقانون البحار.

من هنا، على الطرف الفلسطيني؛ معظم الفصائل والأطراف الفلسطينية الفاعلة والمؤثرة، رفض التدخّل الأميركي المباشر في مياه فلسطين البحرية الإقليمية، واعتبار أي تدخّلٍ من هذا القبيل فعلاً احتلاليّاً مباشراً، يحوّل التواطؤ والشراكة الأميركية - الصهيونية في الجرائم المرتكبة بحقّ الفلسطينيين؛ وفي مقدّمتها جريمة الإبادة الجماعية، إلى شراكةٍ مباشرةٍ في احتلال أرض فلسطين وشعبها. وعليه، تغدو القوات الأميركية قوات احتلال يحقّ لشعب فلسطين الأصلي مقاومتها بكلّ السبل الممكنة، ويتحمّل المجتمع الدولي المسؤولية القانونية والسياسية لمنع هذا الاحتلال المباشر.

بناء عليه، يرفض الفلسطينيون أيّ تدخلٍ أميركي في مياههم الإقليمية استنادًا لدور أميركا الفعلي في دعم احتلال فلسطين وتثبيته، وفق ما أعلن عنه عشرات المسؤولين الأميركيين، ومئات القرارات الأميركية، فضلاً عن آلاف المساعدات العسكرية الأميركية. لذا يعتقد الكاتب أن بناء الرصيف وإدارته وحمايته مسؤولية فلسطينيةٌ خالصةٌ، على اعتباره جزءاً من السيادة الفلسطينية الوطنية، كما يحقّ لهم تكليف جهةٍ دوليةٍ أو أمميةٍ بإحدى هذه المهام أو كلّها، كدولةٍ ثالثة مثلاً؛ أيرلندا، جنوب أفريقيا، الجزائر، أو طرفٍ أممي كالأمم المتّحدة، أو «أونروا» التابعة للأمم المتحدة. التواطؤ الأميركي مع جرائم الاحتلال الصهيوني، ومنها جريمتا التجويع والحصار منذ 17 عاماً، يجعل من الإشراف الأميركي والصهيوني على تنظيم شحنات المساعدات الإنسانية وتفتيشها أمراً مشبوهاً، لأن الاحتلال هو المسؤول المباشر والأول، وأميركا من خلفه، عن جريمتي التجويع والحصار، كما لا يُخفي الاحتلال إصرارَه على استخدام هذه الوسائل المنافية للقانونين، الدولي والإنساني. وعليه، لا يمكن للاحتلال أو أميركا السيطرة على هذا الملف. وهنا أيضاً يمكن البحث في شأن إدارة هذا الملف عبر طرفٍ ثالثٍ موثوقٍ على المستوى الدولي، أو جهةٍ اعتباريةٍ أمميةٍ مثل وكالات الأمم المتّحدة، منظّمة الغذاء العالمي، أو منظمة الصحة العالمية، أو «أونروا»، أو عبر مشاركتهم جميعًا.

أخيراً؛ في ما يتعلق بإيصال المساعدات إلى محتاجيها، لا بدّ من التأكيد على دور «أونروا» ومسؤولياتها أمام القانون الدولي والأمم المتّحدة في هذا الشأن، كما يمكن العمل على تنسيق جهود «أونروا» مع منظماتٍ دوليةٍ وأطرافٍ فلسطينيةٍ مقبولةٍ فلسطينيّاً لإدارة مهامّ توزيع المساعدات على محتاجيها، بشرط خضوع هذه العملية لرقابة ومتابعة الإعلام الغربي والدولي، وتحت حماية قرار أممي صادرٍ عن مجلس الأمن يضمن محاسبة أيّ طرفٍ مسؤولٍ عن إعاقة وصول المساعدات إلى محتاجيها من المدنيين الفلسطينيين في كامل قطاع غزّة، وفي مقدمتهم الاحتلال الصهيوني المسؤول المباشر عن مجمل الجرائم المرتكبة في أرض فلسطين المحتلة منذ 1948.

يعتقد الكاتب أن تأجيل إعلان موقفٍ فلسطيني واضحٍ وحاسمٍ لن يصبّ في صالح القضية الفلسطينيّين أو حتّى قضيتهم العادلة، استناداً إلى تجاربٍ سابقةٍ عديدةٍ. لذا فمن الأفضل الإسراع في إعلان موقفٍ فلسطيني يستند إلى القانون الدولي والإنساني لضمان الاستفادة القصوى من أي خطّة محتملةٍ، ومنع الاحتلال وشريكه الأميركي من الاستفادة منها بأهدافٍ خبيثةٍ أخرى مهما كانت.

(كاتب فلسطيني في كوالالمبور)

العربي الجديد
www.alaraby.co.uk
تصدر عن شركة فضاءات ميديا ليميتد (Fadaat Media Ltd)

رئيس التحرير **حسام كنفاني** ◻ مدير التحرير **ارنست خوري** ◻ المدير الفني **إميل منعم** ◻ السياسة **جمانة فرحات** ◻ الاقتصاد **مصطفى عبد السلام** ◻ الثقافة **نجوان درويش** ◻ منوعات **ليال حداد** ◻ الرأي **معن البياري** ◻ المجتمع **يوسف حاج علي** ◻ الرياضة **نبيل التليلي** ◻ تحقيقات **محمد عزام** ◻ مراسلون **نزار قنديل**

المكاتب
◻ المكتب الرئيسي، **لندن**
Ealing Cross, Second floor, 85 Uxbridge Road, London, W5 5TH
Tel: 00442045801000
◻ مكتب **الدوحة**
الدوحة ـ برج الفردان ـ لوسيل ـ الطابق الـ 20 ـ
هاتف: 0097440190600

◻ مكتب **بيروت**
بيروت ـ الجميزة ـ شارع باستور ـ بناية west end 33
هاتف: 009611567794 - 009611442047
◻ البريد الإلكتروني: Email: info@alaraby.co.uk
◻ للاشتراكات: alaraby.co.uk/subscriptions
هاتف: 97440190635+ جوال: 97450059977+
◻ للإعلانات: alaraby.co.uk/ads